مقدمة

معنى الفلسفة الإسلامية :

اختلف المعالجون للتراث العقلي الإسلامي في معنى الفلسفة الإسلامية تبعا لاختلافهم في موقفهم من العقلية العربية : فالذين يرون أن الجنس العربي ليس من صفاته التعمق في التفكير ولا الابتكار في الرأي والحلول لما يواجهه من مشاكل ، يعرفون الفلسفة الإسلامية بأنها : آراء المدارس الإغريقية الفلسفية التي دخلت الجماعة الإسلامية عن طريق الترجمة والنقل واشتغلت بها طائفة من علماء المسلمين ـ إما بشرحها أو بالتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامي إن بدا هناك تعارض أو تناقض ـ أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم ممن يعرفون في تاريخ الثقافة العقلية الإسلامية بالفلاسفة أو الحكماء . وأصحاب هذا الرأي هم فريق المستشرقين[1] .

---

[1] من أمثال دي بور الذي يقول (في كتابه الفلسفة الإسلامية ص ٣١ ـ ٣٢) « متابعة البحث مستقلا كان فكرة لا تقع في مخ الشرقي الذي يصور لنفسه أن الإنسان بدون معلم تلميذ الشيطان ، وكل ما كان للمسلمين أنهم اقتفوا أثر الفلاسفة اليونانيين وحاولوا التوفيق بين أفلاطون وأرسطو تارة ، أو عمدوا إلى التعاليم التي تحدث اصطدامها فأسقطوها في صمت ، أو أولوها بمعنى لا يتعارض بشدة مع العقيدة (الإسلامية) تارة أخرى . »

والفريق الآخر — الذى يرى أن العربى إنسان له من الخصائص العقلية الطبيعية ما للإنسان فى أى مكان ومن أى جنس ، ومن هذه الخصائص العمل العقلى المنظم الذى يسمى عادة باسم الفلسفة — يطلق الفلسفة الإسلامية على تفكير الجماعة الإسلامية فى الكون وفى ما وراءه ، وفى الإنسان فردا وجماعة .. ، ولكن فقط لأنها جماعة إسلامية كان تفكيرها الفلسفى فى حدود ما ورد به الإسلام من مبادئ ووصايا . وهذا الفريق هو بعض العلماء الأوربيين[1] من غير المستشرقين ممن تناولوا تاريخ الجماعات الإنسانية بالوصف والعرض بعنوان كونها جماعات إنسانية ، بغض النظر عما يفرق بينها من عقيدة أو عادات .

والمسلمون ، بناء على رأى هذا الفريق الثانى ، يجوز أن يكون لهم بناء فى تاريخ الحياة العقلية الإنسانية ، ويجوز أن يكون تفكيرهم استمرارا ،

---

[١] من هؤلاء المؤرخ العقلى الألمانى فيلهلم ديلتاى Wilhelm Dilthey الذى يقول (فى كتابه Einleitung in die geistswissenschaft ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٤ طبع برلين سنة ١٩٣٣) : « والغرب مدين للعرب فى توسيع نطاق الجبر اليونانى ، وبلا شك قد هيئوا الأمر بتقدمهم الخاص إلى نشأة العلم الطبيعى الحديث فتوسعوا فى الكيمياء عما وصلت إليهم من مدرسة الاسكندرية وأوجدوا عدة مستحضرات كيماوية كما تقدموا فى الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمى (فى المساحة) » . إذ اعترف بأن العقلية العربية يحق لها أن تنتج كعقلية أى جنس آخر وأنها قد أنتجت بالفعل فى بعض الموضوعات وأنه كان لهذا الانتاج أثر فى تطور العقلية الغربية .

لا تقليدا ، لتفكير من سبقهم من مفكرى الإغريق وغيرهم ، بينما عملهم العقلى على الرأى الأول، هو فقط فى دائرة مارسمه الإغريق لا يخرج عن مشاكله ولا عن حلول تلك المشاكل .

والفلسفة الإسلامية الإلهية، أو فلسفة ما وراء الطبيعة عند المسلمين ، بناء على الرأى الثانى أيضا، تشمل كل تفكير إسلامى فى الله ، سواء فى تحديد ذاته أوصفاته أو فى شرح علاقته بالكون وبالأخص علاقته بالإنسان . والكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد من الحكماء عندئذ كأبى الهذيل العلاف والنظام من المعتزلة ، وكالأشعرى وإمام الحرمين والغزالى من الأشاعرة، فى أن كل واحد من هؤلاء استخدم العقل فى بحثه فى حدود ما ورد به الدين ، وتأثر بآراء الإغريق فى بحثه ، ولكن فقط درجة التأثر بين هذه الطبقات الثلاث متفاوتة. أشدها درجةً عند من يعرفون باسم الفلاسفة والحكماء، وأخفها عند من يعرفون باسم الأشاعرة ، أما المعتزلة فهم وسط بين الطبقتين .

ومجمل القول أن هناك رأيين فى تحديد الفلسفة الإسلامية : أحدهما قائم على عدم استقلال العقل العربى بالانتاج ، وأن ماينسب إليه من فلسفة إن هو إلا فكر الإغريق تناولها بالشرح والترديد . والآخر يرجع إلى الاعتراف بتساوى العقل العربى مع عقل أى شعب آخر فى جواز الانتاج والابتكار إن لم تحل حوائل دون الانتاج والابتكار ، وعلى هذا ليست الفلسفة العربية أو الإسلامية

هى فكر الإغريق التى احتضنها العقل العربى بل يجوز أن يكون له وراءها مشاكل وحلول أخرى ، سواء لهذه المشاكل أو لغيرها .

موقف المؤرخ الثقافى مع المعاصرين للتراث العقلى الإسلامى :

وربما كان لأصحاب الرأى الأول شبهة فى ظاهر الأمر ، إذ أن ضخامة الثقافة غير الإسلامية ، وبخاصة الثقافة الإغريقية ، التى دخلت الجماعة الإسلامية مع الأجناس الأجنبية وحماها رؤساء المسلمين حينا ، أو شجعوا على نقلها ومدارستها فيما بعد من جهة ، ثم غلبة الصبغة العقلية العلمية عليها من جهة ثانية ، وطول النقاش فيها من العقلية الإسلامية بين أخذ ورد ، وانهما كلها فى ذلك فترة طويلة استغرقت فترة النشاط للعقل الإسلامى المنتج (إلى آخر القرن السابع الهجرى تقريبا) من جهة ثالثة ، وأخيرا عدم وجود تراث علمى[1] قبل اختلاطهم بغيرهم ، من جهة رابعة ، كل هذا حمل أصحاب هذا

---

[١] إذ « المعرفة » التى كانت لديهم فى عصرهم الجاهلى لم تقم على مشكلة من مشاكل العلم وتحليلها ، ولم تتضمن شرحا منظما لناحية حقيقة من الحقائق فيه ؛ بل كان قوامها التجارب البدائية . ومثل هذه المعارف لا تأخذ صبغة « العلم » .

وفى عصر صدر الاسلام كان القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم هما كل ما كان لديهم من معرفة وهى معرفة « دينية » أو معرفة « وحيية » . ومثل هذه المعرفة وان عصمت عن الخطأ ، إلا أنها لا توصف « بالعلمية » . إذ العلم يطلق على ضرب من معرفة الانسان كونتها بمقاييسه المعتبرة لديه من منطق أو تجربة وبلغت فى الدقة عنده مبلغ اليقين الجازم .

وما كان للعرب إلى أن اختاطوا بغيرهم من أرباب الثقافات الأجنبية لا يخرج عن « الأدب » بنوعيه ، وتلك المعارف التى كونتها الملاحظة الأولية أو استصحبتها التقاليد .

الرأى ـ وهم فريق من الأجانب المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم لمعالجة التراث الإسلامى الدينى أو العقلى منذ القرن الثامن عشر الميلادى تقريبا ـ على أن يدعوا ما ادعوه ، ويحكموا بأن التفكير الإسلامى العقلى لم يخرج عن النطاق الذى رسمه الاغريق ولا عن الشروح التى قام بها رجال العصر الهللينى الرومانى ، فما تناوله التفكير الإسلامى العقلى من مسائل هى المسائل التى حددها فلاسفة الإغريق ، وما ذكروه لها من حلول هى أيضا الحلول التى نقلت لهذه المسائل عنهم أو عن تلامذتهم من غير المسلمين .

واختلافهم فى هذا الحكم اختلاف فى عرضه فقط ؛ فبينما نرى مثلا «ماكس هورتن» الألمانى و «رينان» الفرنسى ينبالغان فيه فيسلبان العقلية الإسلامية المتفلسفة كل أثر غير الترديد أو التقليد ، إذا «بجلدزيهر» المجرى و «دى بور» الهولندى و «كارا ـ دو ـ فو» الفرنسى يخففون من هذا الغلو بحجة عدم الوقوف على المصادر العربية التى تصور لهم الأثر الكامل المستقل للعقلية الإسلامية المتفلسفة .

وبجانب حكم المستشرقين وتكييفهم لعمل العقلية الإسلامية فى التراث الإغريقى على النحو الذى أشرنا إليه ، لا يخفى بعض المؤلفين المسلمين الذين أرخوا للديانات الشرقية والملل والنحل مثل البيرونى وابن حزم والشهرستانى حكمهم بتأثر الفرق الإسلامية ـ فيما لها من أصول وشروح لهذه الأصول ـ ببعض مسائل هذه الديانات ، وما نقل لها من تعليلات أو شروح . ويجاريهم فى هذا الحكم

الآن بعض المحدثين المصريين العارضين للتراث العقلي الإسلامي .

والمؤرخ الثقافي ـ في عرضه للحياة العقلية الإسلامية بالرغم من مثل هذه الشبهة أو غيرها ـ يجب أن يقف من دعوى محض تأثر المسلمين بغيرهم من أرباب الثقافة الإغريقية أو أرباب الديانات الشرقية ، كما يجب أن يقف مما يقابل هذه الدعوى ، موقف الناقد المجرد عن الغرض ، والعارض لتيارات هذه الحياة كما هي ، دون أن يصنع في مجاريها تحويرا ، أو أي تغيير على العموم .

وإزاء هذا نرى أن نعرض للتفكير الإسلامي في أطواره المختلفة لنتبين : أحقاً تأثر التفكير الإسلامي بالفكر الاغريقي على وجه أن هذا اقترح عليه المسائل ووضع له حلولها ؟ وحقا تأثرت بعض الفرق الإسلامية ـ في نشأتها وفيما كان لها من آراء ـ ببعض الديانات الشرقية ؟ ؛ أم كان التأثر فقط ـ إن كان هناك تأثر ـ في التوجيه وفي نوع المعالجة دون المشاكل ذاتها ، أما المشاكل نفسها فهي موجودة لأنها من إملاء الواقع ، وواقع الجماعة الإنسانية في جملته واحد ؟ .

والوقوف على قيم مثل هذه الأحكام هو المهمة الأولى لتاريخ التفكير البشري أو لتاريخ الفلسفة . وبهذه المهمة يبقى العقل الإنساني ناقدا . والنقد رسالته الفطرية الطبيعية . وتقليده في الأحكام أو الآراء فقط عند ما يباعد بينه وبين فطرته تحت تأثير العادة أو الشيوع أو غير ذلك من عوامل التأثير .

ولما كان التفكير الإسلامى متشعبا نرى ـ ضبطا للوقوف على تطوره وبالتالى لإصابة الهدف الذى حددناه الآن وهو تعرف قيمة الحكم على تفلسف المسلمين وعملهم العقلى من وجهة نظر المعالجين للتراث العقلى الإسلامى من أجانب ومسلمين ـ أن نعرض منه جانبا بعد آخر فى صورته الزمنية . إذ لهذا التراث جوانب متعددة : فله جانب إلهى يتناول الله وصفاته وعلاقته بالعالم ، وآخر أخلاقى يتناول الإنسان وتصرفاته وغايته ، وثالث طبيعى يتناول العالم المشاهد وأصله وتطوره ، ورابع رياضى يتناول الحساب والجبر والهندسة... الخ

ولكل جانب من هذه الجوانب عوامل أثرت فى نموه أو تطوره ، وعلماء كذلك عرفوا بالتوفر على الاشتغال به . وقد تكون العوامل التى أثرت فى جانب غير العوامل التى أثرت فى جانب آخر وإن كان يجمع كل العوامل مصدر عام واحد . فإن قيل مثلا إن الديانات الشرقية ، أو المصدر الشرقى للثقافة غير الإسلامية ، أثر فى التفكير الإسلامى فقد يكون صحيحا على وجه العموم . ولكن ما أثر منه مثلا فى الجانب الإلهى لتفكير المسلمين ، أو تفلسفهم فى الإلهيات ، غير ما أثر فى الجانب الأخلاقى من هذا التفكير : فالمسيحية قد يدعى أنها أثرت فى التفكير الإسلامى ولكن مانجده منها أثر فى الجانب الإلهى من تفكير المسلمين غير الذى يدعى أنه أثر منها فى الجانب الأخلاقى. فشرحها أو ماسنسميه مسيحية مفلسفة أو فلسفة المسيحية أو علم الكلام عند المسيحية هو مظنة التأثير فى الجانب الإلهى بينما أصلها أو ماسنسميه بالمسيحية

النصية أو المسيحية قبل الشرح والتفلسف هو مظنة الأثر فى الجانب الأخلاق من التفكير الإسلامى إن ادعينا أنه تأثر بالمسيحية . وهكذا ...

وليس الوقوف على مدى العمل العقلى للمسلمين وبيان قيمته هو فقط هدفنا من عرض التفكير الإسلامى فى تطوره على هذا النحو ، بل هناك هدف آخر وراءه يتعلق بكتب التراث الإسلامى التى وضعت للدفاع عن العقيدة الاسلامية منذ القرن السادس الهجرى وهى التى اشتبكت فيها طريقة الفلاسفة مع طريقة الكلاميين السلفيين . فلا تتبين قيمتها العلمية وبالتالى لا يسهل فهمها إلا بمعرفة عناصر المكتوب فيها ، وهى عناصر إسلامية وغير إسلامية ، ولا تتبين قيمتها كذلك إلا بمعرفة أصول العناصر الدخيلة غير الاسلامية .

والدفاع عن العقيدة الإسلامية لايجدى فى عصرنا الحاضر إلا بمعرفة قيم ما أنتجته العقلية الإسلامية وبالأخص فى الجانب الإلهى إن كان لها إنتاج ، ومعرفة قيم مانقل عن الثقافات الأخرى أيضاً . ولاشك أن الوقوف على قيمة حكم المستشرقين وحكم المسلمين المعالجين للتراث الإسلامى العقلى ، على عمل العقل الإسلامى فى هذا التراث ، وهو الهدف الأول لعرضنا هذا ، يتضمن كذلك الوقوف على قيم العناصر العقلية سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية ؛ وفى بيان قيمتها يتضح ضعفها أو قوتها فى ذاتها . فتاريخ التفكير الإسلامى — كعلم مهمته النقد — هو إذاً أسلوب اليوم فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

وسنحصل بهذا العرض إذاً على غاية عامة إنسانية لها صلة بالتفكير الانسانى ، وعلى غاية أخرى خاصة لها صلة بكتب العقيدة الإسلامية .

* * *

وسنبدأ هنا بالجانب الإلهى من تفكير المسلمين لأمرين :

أولا : لأن هذا الجانب كان بوجه عام هو المسيطر على تفلسف القدامى والقرون الوسطى .

ثانيا : لأن المسلمين لم يعنوا بجانب من جوانب تفكيرهم كعنايتهم بهذا الجانب . إذ الإله وصفاته ـ وهو موضوع هذا الجانب ، على نحو ماورد به الإسلام ـ كان الأساس الأول فى كيانهم ووجودهم كجماعة إنسانية معينة ؛ تميزت بأنها إسلامية ، لها غرضها وهدفها فى هذه الحياة . فكفاحها فى دعم هذا الأساس كفاح من أجل هدفها أو كفاح فى سبيل حفظ بقائها . وناحية من نواحى الجماعة الإنسانية تمس حفظ بقائها لاشك أنها الناحية الأولى فى تفكيرها والأولى فى الحدب على صيانتها .